ويليام بيرنز
William J Burns

كيف فشلنا في منع الحرب على العراق ؟



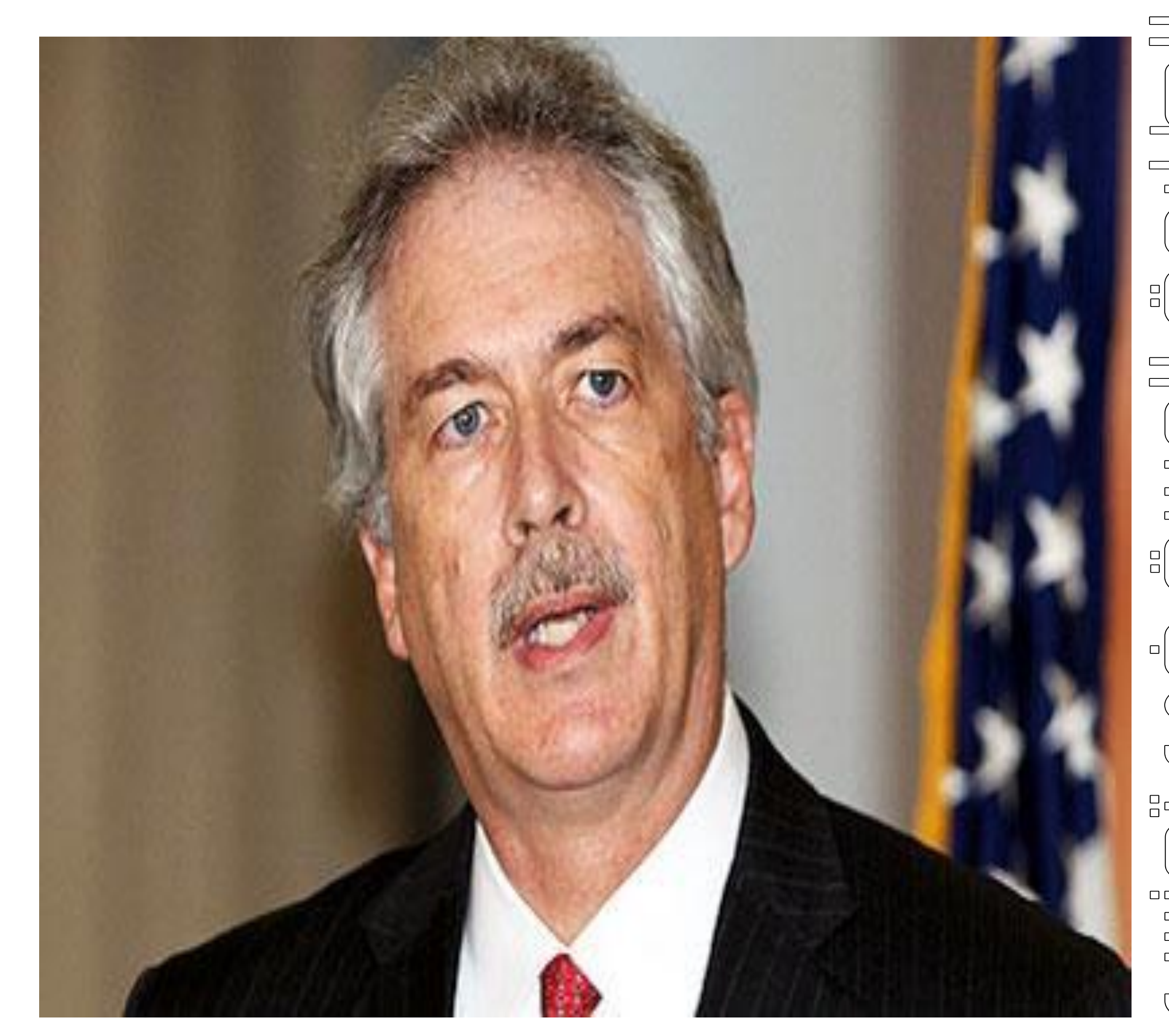
منشورات 2019 الطليعة

وشهد شاهدٌ من أهلها

حرب إحتلال العراق على لسان مسؤول أمريكي بارز

تعريف بالكاتب

وليام بيرنز William J Burns ، هو دبلوماسي أمريكي عمل سفيرا للولايات المتحدة الأمريكية في روسيا في الفترة (2005 - 2008) و في 18 يناير 2008 أعلنت كونلديزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية عن تعيين وليام بيرنز في منصب مساعد وزير الخارجية الأمريكية وهو يعتبر من أعلى المناصب في الإدارة الأمريكية. عمل تحت مسؤولية كولن باول في مجلس الأمن القومي إبان حرب إحتلال العراق عام 2003 ...



تمهيد

نشر نائب وزير الخارجية الأميركي السابق السفير ويليام ج. بيرنز، الذي يشغل الآن منصب رئيس مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي مذكراته في كتاب بعنوان "القناة الخلفية: مذكرات الدبلوماسية الأميركية وحالة تجديدها" صدر عن دار "نيو راندوم هاوس" في شهر مارس 2019 . وقد نشرت مجلة "بوليتيكو" هذا المقال المقتبس من الكتاب، والآتي ترجمة لمعظم أجزائه ...

كيف فشلنا في منع الحرب على العراق

عندما نظرت من نافذتي في الطابق السادس من وزارة الخارجية، رأيت أعمدة الدخان عبر نهر بوتوماك. كان الحجم الضخم للهجمات التي وقعت يوم الثلاثاء الموافق 11 سبتمبر 2001 قد بدأ للتو في الغوص. بعد ظهر ذلك اليوم، جالساً في مبنى مهجور تقريباً، وحدي في مكتبي كمساعد لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى، حاولت جمع أفكاري والتفكير في المستقبل. لقد تعطلت أنظمة الكمبيوتر لدينا، لذا جلست على مكتبي وكتبت مذكرة إلى وزير الخارجية كولن باول بخط يدي بالكتابة العادية، قدر ما استطعت. لقد كان جهداً سريعاً، حيث غطى أربع صفحات من الورقة القانونية الصفراء.

في المذكرة حاججت بأن علينا البحث عن الفرص وسط الأزمة. بالطبع، كان علينا أن نستجيب بحزم لضربة تنظيم "القاعدة" على وطننا. ولكن بدا لي أنه في تلك اللحظة القاتمة والمؤلمة، أنه يمكننا الاستفادة من الدعم العالمي غير المسبوق تقريباً واستعادة زمام المبادرة في الشرق الأوسط. يمكننا رسم إستراتيجية لن ترد فقط بقوة على الإرهابيين وعلى أي دول استمرت في إيوائهم، ولكن أيضاً وضع أجندة إيجابية قد تساعد في النهاية على الحد من اليأس والغضب الذي يستغله المتطرفون.

كان يمكن أن نستخدم التأثير التذليلي للعمل العسكري في أفغانستان لتركيز أذهان القادة في ليبيا وسوريا واستخدام الدبلوماسية القسرية – الضغوط السياسية والاقتصادية المدعومة بالتهديد باستخدام القوة – لاحتواء وتقويض صدام حسين في العراق.

في الأشهر الـ18 التي تلت ذلك – تلك النقطة المفصلة النادرة في التاريخ بين صدمة 11 أيلول -سبتمبر وغزو العراق في أوائل عام 2003 – اتخذنا مساراً مختلفاً وفي النهاية كارثياً. هذه هي قصة الطريق التي لم يتم اتباعها، من الخطة الأولية للدبلوماسية القسرية في العراق، والتي تبين أنها كانت طويلة في الإكراه وقصيرة في الدبلوماسية. إنها قصة الحروب غير المنتهية التي ما زلنا نحاول فصل أنفسنا عنها، وقصة الطرق التي سرّعنا بها نهاية لحظة أميركا في الشرق الأوسط وهيمنتنا الفردية على المشهد الدولي الأوسع.



إنها قصة إخفاقي في بذل المزيد من الجهد للحيلولة دون نشوب حرب لم نكن نحتاج إلى خوضها. إنها قصة تحتوي على دروس حول الافتراضات المعيبة، وعمليات السياسة المعطلة، والدوافع أحادية الجانب التي يتردد صداها بقوة اليوم مع رغبة إدارة أمريكية أخرى في تغيير نظام آخر – هذه المرة في إيران – في منطقة نادراً ما ترتفع فيها العواقب غير المقصودة.

في الأيام الملتبسة والعاطفية بعد هجمات 9/11، لم يكن من الصعب تخيّل إدارة جورج دبليو بوش اغتنام هذه الفرصة أمامها. كان فريق الأمن القومي للرئيس بوش مألوفاً وذا خبرة ومجرّباً. بدا ضبط النفس والواقعية على أنهما دليلهم المهيمن. في الوقت الذي تحرك فيه الجيش الأميركي ووكالة الاستخبارات المركزية سريعاً في خريف عام 2001 للمساعدة في الإطاحة بنظام "طالبان"، تقدمت وزارة الخارجية إلى الأمام بشأن عدد من المبادرات الدبلوماسية التي رسمت في ملاحظتي العاجلة للوزير كولن باول – بينها فتح حوار مباشر مع الإيرانيين حول أفغانستان ما بعد "طالبان" الذي ساعد في إنتاج حكومة جديدة، وإنعاش المحادثات مع الليبيين حول الإرهاب (وفي النهاية بشأن برنامجهم النووي) وكسب القبول الروسي لإقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لإطار "العقوبات الذكية" على العراق الذي يستهدف بشكل أكثر حدة أنشطة الحكومة غير المشروعة، وليس المدنيين الأبرياء.

ومع ذلك، سرعان ما تغلبت على هذه الأجندة وجهة نظر بديلة. لقد اهتزت الإدارة الجديدة بشكل سيء وشعرت بدعوة للعمل – وكلما كانت حاسمة أكثر كان ذلك أفضل. لم يكن موسم للفوارق الدقيقة والحذر والتسويات. لقد كان هذا الموسم متسامحاً مع المخاطر والطموح أيديولوجياً، عازماً على حشر أنفسنا بقوة في المنافسة الإقليمية للأفكار، وعسكرة سياستنا، وإرخاء خطابنا.

بعد الألم والدهشة في الحادي عشر من أيلول – سبتمبر، حان الوقت لإعادة تأكيد القوة الأميركية، وحان الوقت لتذكير الأعداء بعواقب تحدي الولايات المتحدة. بالنسبة للكثيرين في البيت الأبيض والبنتاغون ، كانت تلك الرسالة أفضل خدمة أحادية الجانب وغير مرتبطة ببناء ائتلاف متقن.

أصبح تغيير النظام في العراق بمثابة اختبار جدي لنهج الإدارة بعد 11 أيلول سبتمبر. وجد الرئيس بوش، قليل الصبر والفخور بحزمه، أن سياسة احتواء صدام حسين كانت سلبية للغاية وغير كافية لتحديات هذه اللحظة في التاريخ. لم تعد العدسات الواقعية المتواضعة في حملته الرئاسية تنير. بالنسبة لـ"المحافظين" مثل نائب الرئيس ديك تشيني ووزير الدفاع دون رامسفيلد ، كانت الرسالة المرسلة في أفغانستان ضرورية ولكنها غير كافية.

بالنسبة إلى "المحافظين الجدد"، مثل نائب وزير الدفاع بول وولفويتز ووكيل وزارة الخارجية دوغ فيث في البنتاغون، لم تكن إطاحة صدام بالقوة مجرد رسالة، بل كانت فرصة لإنشاء



نموذج ديمقراطي في العراق، وبدء التحول في المنطقة بأسرها وإعادة تأكيد الهيمنة الأميركية بعد عقد من الحرب الباردة المرتبط بشكل ساذج بوعد تحقيق مكاسب السلام.

في الأشهر التي أعقبت هجمات 9/11، انحرف نطاق السياسة عن الأجندة الأوسع نطاقاً التي ناقشناها في وزارة الخارجية، نحو تركيز أحادي التفكير على الإطاحة بصدام حسين. وكذلك كان الحال بالنسبة لمجال اللعب البيروقراطي، حيث أصبح وزير الخارجية باول معزولًا بشكل متزايد واعتبره الخصوم في البيت الأبيض والبنتاغون مستقلاً جداً، وشعبياً جداً ومعتدلاً للغاية. واعتبروا قسمي، شؤون الشرق الأدنى، عريناً للانهزاميين ومثل "كاساندرا" الإغريقية. في واشنطن التي نادراً ما كانت تفتقر إلى القتال والمعركة السياسيي، كان الطريق إلى الحرب في العراق مميزاً لقوته وعدم انضباطه.

لقد واصلنا أنا وزملائي في مكتب شؤون الشرق الأدنى الاعتقاد لبعض الوقت أن نتمكن من احتواء العراق وتجنب الحرب. كنا قلقين من أن حرباً أحادية الجانب وغير مدروسة للإطاحة بصدام حسين ستثبت أنها خطأ فادح في السياسة الخارجية. ومع ذلك، لم نجادل بشكل مباشر ضد سياسة الحزبين لتغيير النظام في نهاية المطاف – وهو هدف ورثناه عن إدارة كلينتون – ولم نجادل ضد الاستخدام المحتمل للقوة لتحقيق ذلك. بدلاً من ذلك، وإحساساً منا بالحماسة الأيديولوجية التي كانت تهدر بها طبول الحرب، حاولنا إبطاء وتيرة النقاش وتوجيه النقاش في اتجاه أقل إيذاءً. لم تكن لدى أي منا أوهام بشأن صدام حسين أو التهديد طويل الأمد الذي شكّله نظامه على المنطقة. إن وحشيته تستحق كل شيء من الإدانة الدولية والنبذ الذي تلقاه. ومع ذلك، لم نرَ تهديداً خطيراً ووشيكاً يبرر الحرب.

في وزارة الخارجية ، شعرنا في البداية بالذهول للاعتقاد بأن حججنا كانت تكتسب قوة. قبل الحادي عشر من أيلول – سبتمبر، كانت مناقشات الإدارة الجديدة بين الوكالات الحكومية حول العراق طويلة ومؤلمة، وهو نوع من التطهير البيروقراطي الذي يحدث عند تتم مناقشة القضايا بحدة لكن الجميع يعلم أنه لا توجد إرادة سياسية أو إلحاح لحلّها.

أتاحت هجمات 11 أيلول – سبتمبر الفرصة أمام أنصار تغيير النظام. ذكر لي باول في 12 أيلول – سبتمبر أن رامسفيلد أثار التهديد الذي كان يمثّله صدام حسين في اجتماع مجلس الأمن القومي في الأمسية السابقة، وأثار وولفويتز على القضية مجدداً في اجتماع لكبار المدراء في كامب ديفيد بعد بضعة أيام. كان الرئيس بوش مأسوراً بما فيه الكفاية ليطلب من موظفي مجلس الأمن القومي إجراء تحقيق سريع حول ما إذا كان لصدام حسين دور في هجمات 11 أيلول – سبتمبر. كان الجواب بـ"لا" لا لبس فيه.



أوضح الرئيس بوش أن الأولوية العاجلة ستكون العمل ضد حركة طالبان وتنظيم القاعدة في أفغانستان. ومع ذلك، فإن فكرة توجيه ضربة استباقية للإطاحة بصدام حسين كانت تتزايد ببطء.

قبل اجتماع في البيت الأبيض في شهر تشرين الثاني – نوفمبر، أرسلت مذكرة إلى نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج شددت فيها على أنه "الوقت غير المناسب لتحويل تركيزنا عن أفغانستان". وشرحت أننا بحاجة "لإظهار أننا سننهي المهمة [و] استعادة النظام، وليس فقط الانتقال إلى الدولة الإسلامية التالية". لقد أضفت أن قضية الحرب كانت ضعيفة للغاية. لم يكن هناك "دليل على وجود دور عراقي" في هجمات 11 أيلول – سبتمبر، و"لا دعم [إقليمي أو دولي] للعمل العسكري" و"لا يوجد حدث مستفز". كانت هناك "معارضة داخلية ضعيفة نسبياً [في العراق]"، ووضوح قليل بشأن ما قد يحدث في اليوم التالي.

في أسفاري في الشرق الأوسط في أوائل عام 2002، اكتشفت القليل من الإلحاح بشأن التخلص من صدام من الزعماء العرب – وقلق كبير، كما أبلغت باول، من أن "الولايات المتحدة ستأتي وتخلق فوضى ثم تتركهم للتعامل مع عواقبها". كان إحساسهم، مثلي، هو أن" المعارضة الحالية في العراق مفككة، ضعيفة وغير قادرة على تنظيم نفسها، وكذلك غير قادرة على جلب الأمن والاستقرار والمجتمع المدني إلى عراق ما بعد صدام". لقد عبرت عن قناعتي، والتي عرفت أن باول كان يشاركني إياها، بأن "الدخول إلى العراق سيكون أسهل بكثير من الخروج منه" – وأن وضع ما بعد الصراع سيكون مشكلة أكبر بكثير من العملية العسكرية الأولية.

خلال الربيع وأوائل الصيف، استمر النقاش بين الوكالات. كنا لا نزال نعتقد أنه بإمكاننا "إبطاء القطار"، كما اعتاد باول على قول ذلك، لكن الحقيقة كانت أنه كان يراكم السرعة. لقد استخدمت استعارة مختلفة، وعلى نفس القدر من الخطأ، في مذكرة إلى الوزير باول قبل اجتماع مع الرئيس في نيسان – أبريل 2002. لقد حضضته على "لعب الجودو" بتأكيدات أكثر جنونًا من مكتب وزير الدفاع "وآملت أنه من خلال الكشف عن مخاطر الحرب وآثارها، يمكننا كسب النفوذ. لم يكن لهذا التكتيك سوى تأثير هامشي، ولا سيّما في تلك اللحظة التي أعقبت أحداث الحادي عشر من أيلول – سبتمبر عندما كان هناك تحيّز للعمل(العسكري)، وكانت الحكمة تشبه الضعف.

حاولنا مرة أخيرة في وقت لاحق من ذلك الصيف في المحاججة لتجنب الحرب – عبر تلخيص، كل شيء في مكان واحد، للمخاطر العميقة لنزاع سيء الإعداد وغير مدروس. قام ديفيد بيرس، الذي أدار مكتب شؤون الشرق الأدنى في العراق وإيران، بإعداد مسودة أولية تحدد كل شيء يمكن أن يحدث خطأ إذا ذهبنا إلى الحرب. انضممت أنا ونائب مساعد الوزير ريان كروكر



إلى ما أصبح سريعًا جلسة العصف الذهني الأكثر إحباطًا في حياتنا المهنية. كانت المذكرة الناتجة، التي راجعها ديفيد بيرس، قائمة سريعة من "الفظائع" أكثر من كونها تحليلًا متماسكًا، وهو ترياق تم تجميعه على عجل للافتراضات الوردية المتهورة لخصومنا البيروقراطيين.

تبدو العديد من الحجج الواردة في المذكرة، والتي أطلقنا عليها "العاصفة المثالية"، واضحة بعد فوات الأوان. لقد أبرزنا خطوط الصدع الطائفي العميق في العراق، والتي أبقى عليها صدام حسين غطاءً وحشياً. لقد أكدنا على مخاطر الاضطرابات المدنية والنهب إذا انهارت المؤسسات العسكرية والأمنية العراقية أو تم القضاء عليها في أعقاب الإطاحة بصدام، وخطر انهيار البنية التحتية المدنية المتدهورة بالفعل. وحاججنا أنه إذا شرعت الولايات المتحدة في هذا الصراع، وخاصة إذا شرعنا فيه بشكل أو بآخر، ومن دون مبرر مقنع، فإننا سنتحمل المسؤولية الرئيسية عن الأمن والنظام واللتعافي بعد انتهاء الصراع. من شأن ذلك أن يمتص الأوكسجين من أي أولوية أخرى على أجندة الأمن القومي للإدارة.

إذا نظرنا إلى الوراء، فإننا نجد أننا قللنا من بعض المخاطر، مثل السرعة التي يؤدي فيها إراقة الدماء بين السنة والشيعة في عراق ما بعد صدام إلى تأجيج صراع طائفي أوسع في المنطقة. لقد بالغنا في تقدير الآخرين، مثل خطر استخدام صدام للأسلحة الكيميائية. ومع ذلك، فقد كان جهدًا صادقًا لتوضيح اهتماماتنا، وعكس خبراتنا الجماعية وتجارب جيلنا من مستعربي وزارة الخارجية، المحترقين بذاكرة التعثر في وسط الصراع الطائفي الدموي في لبنان في ثمانينات القرن العشرين.

ما لم نفعله في مذكرة "العاصفة المثالية"، كان اتخاذ موقف صارم ضد الحرب تماماً، أو تقديم قضية عاطفية لاحتواء صدام حسين كبديل طويل الأجل للنزاع. في النهاية، سحبنا بعض اللكمات، وأقنعنا أنفسنا بأننا لن نحصل أبداً على الاستماع إلى بواعث قلقنا فيما عدا الوزير باول إذا ما وضعنا أنفسنا على المسار الصحيح. بعد سنوات، لا يزال هذا هو أسفي المهني الأكبر.

في مذكرة إلى باول في وقت لاحق من شهر آب – أغسطس، أقررت بأننا خسرنا المعركة مع الآخرين في الإدارة حول "ما إذا كان هدف تغيير النظام منطقياً أم لا؛ الآن الأمر يتعلق بالاختيار بين طريقة ذكية وطريقة غبية لتحقيق ذلك. لقد حققنا نجاحاً أكبر بشكل هامشي في هذه المرحلة التالية، بحججنا لتدويل الطريق إلى الحرب وضمان تعاون ودعم العراقيين قدر الإمكان داخل البلاد – وليس المشعوذين المنفيين الذين يفضلهم البنتاغون مثل أحمد الجلبي"...



لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى بدأت سياستنا تجاه العراق في الانهيار. إن الانتصار المبكر بعد الإطاحة بصدام حسين أفسح المجال أمام تمرد خطير، تسارعت فيه قرارات مضللة بشكل مأساوي بحل الجيش العراقي ومنع أعضاء حزب البعث بزعامة صدام من أداء أي دور في القطاع العام. بعد زيارة صيفية مبكرة لبغداد، اختبرت قدرتي على الاستخفاف بالدبلوماسية من خلال إبلاغي الوزير باول بأننا "في حفرة كبيرة جداً في العراق". أخبرت الوزير أن مقر سلطة التحالف المؤقتة كان "يذكرنا بالساحة العظيمة في حرب النجوم". في العظمة الباهتة التي لا تزال ماثلة في القصر الجمهوري القديم لصدام، احتشد أفراد أميركيون وغيرهم من قوات التحالف في جميع ساعات النهار والليل – عسكريون ومدنيون، مسلحون وغير مسلحين، من قدامى المحاربين بعد انتهاء الصراع. المواقف والشباب الجمهوريين ، المجتهدون والملتزمون والمجهولون. تفجر العنف الطائفي في جميع أنحاء البلا ، وعلى مدى السنوات القليلة المقبلة، أصبحت الحفرة أكثر عمقًا.

بحلول نهاية فترة ولاية بوش الأولى، وأربع سنوات في مكتب شؤون الشرق الأدنى، كنت مرهقاً للغاية، وقلقاً للغاية من الفوضى التي ارتكبناها في الشرق الأوسط وخيبة الأمل في إخفاقي في بذل المزيد من الجهد لتجنب ذلك. وسرعان ما أصبحت خطايا سياستنا واضحة بشكل ظاهر، وأصبح من الصعب قياس خطايا الإهمال.

كان غزو العراق هو الخطيئة الأصلية. وقد ولدت من الغطرسة، وكذلك نتيجة إخفاقات فقر الخيال والعملية. بالنسبة إلى أنصار المحافظين الجدد، كانت الأداة الرئيسية في اضطراب الشرق الأوسط هي الفكرة القاسية وغير المسؤولة وغير المستقرة تاريخياً بأن هز الأشياء بعنف سوف يؤدي إلى نتائج أفضل.

ما ليس مفاجئاً، أن الإطاحة بصدام حسين قد أثارت سلسلة من المشاكل الارتدادية. لقد كشفت عن هشاشة العراق واختلال وظيفته وكذلك نظام الدولة العربية الأوسع نطاقاً – مما يثبت أن الأميركيين يمكن أن يكونوا متعجرفين ومتشابكين في تأثيرهم على خرائط الشرق الأوسط مثل صانعي الخرائط البريطانيين والفرنسيين الأصليين.

كان فقر الخيال مشكلة أخرى. على الرغم من أننا حاولنا في مكتب شؤون الشرق الأدنى الإشارة – مراراً وتكراراً – إلى جميع الأشياء التي يمكن أن تؤدي إلى الخطأ، وجميع الأسباب لتجنب حرب خاطئة وكل مسارات السياسة البديلة المعقولة، لكن لم يطرح أي منا أسئلة أساسية كافية. لم يفكر أي منا بجدية كافية حول احتمال أن صدام حسين لم يعد يمتلك أسلحة دمار شامل وكان غامضاً بشأن إخفاء مخزوناته منها بل إخفاء غيابها في وجه الحيوانات المفترسة المحلية والإقليمية. علمنا ذلك فقط في وقت لاحق.



كان هناك كذلك فشل العملية. كان استقطاب وجهات النظر في الإدارة في الفترة التي سبقت الحرب في عام 2003 صارخاً ومشللاً، ولم يتم حله أبداً. في بعض الأحيان كانت هذه مجرد وظيفة للتفكير بحسب الرغبة، مثل خيال المحافظين الجدد المتمثل في أن العراقيين سينهضون بسرعة فوق تاريخ خالٍ من الحكم الوطني التوافقي ومليء بالمنافسات الطائفية، أو فكرة رامسفيلد بأننا نستطيع أن نغيّر النظام بكلفة رخيصة.

الخطايا الأوسع للإغفال تدور حول تكاليف الفرصة البديلة، والطريق الذي لم يُسلك. كيف كانت ستكون الأمور مختلفة بالنسبة لدور أميركا في العالم والشرق الأوسط إذا لم نقم بغزو العراق في ربيع عام 2003؟ ماذا لو حاولنا تسخير التدفق الهائل للنيات الحسنة الدولية وشاركنا القلق بعد هجمات 11 أيلول – سبتمبر الفظيعة في اتجاه مختلف وأكثر بناءة؟ كان ذلك سيتطلب محاولة حقيقية للدبلوماسية القسرية في العراق، والصبر في نهجنا والاستعداد للمشاركة في تصميمه وتنفيذه.

بدلاً من ذلك، اخترنا المزيد من الرضا الفوري للنبضات الأحادية والقوة الفظة وأبقينا جزء المشاركة في الحد الأدنى. لقد كان من وراء قوتنا وخيالنا إعادة تشكيل الشرق الأوسط، مع الإطاحة بصدام حسين أو من دونه، لكن من المؤكد أننا يمكن أن نجعل منطقة مضطربة بالفعل أسوأ ونزيد من تآكل قيادتنا ونفوذنا. وقد فعلنا.